قصة

رائحة الماضي

ناطق خلوصي

خُيّل إليه وهو يجتاز الشّارعَ أنَّ الوجه الذي سقَط بصرُهُ عليه قبل لحظات ليس غريباً عنه. وإذْ صار على الرّصيف وقف واجماً، محاولاً أن يستفزّ ذهنه ويستنجد بخزين ذاكرته لعلّه يتذكّر صاحبة ذلك الوجه الشّاحب الهرم. وفجأة هبط من الرّصيف وبدأ يعبر الشّارع من جديد بين زحمة السيّارات الرّاكضة صوب الجسر ووسط أزيز محرّكاتها وزعيق منبهاتها وسباب سائق سليط اللّسان مرق من أمام سيّارته الفارهة.

كان بصره يلاحق صاحبة القامة المنحنية قليلاً والمتلفّعة بعباءة سوداء. وخشية أن تغيب عنه أسرع الخطى حتّى رآها تنحرف يميناً وتنزلق في زقاق «العاقوليّة». خطر في ذهنه أن يأتي بحركة مّا تثير انتباهها فتلتفت إليه ليتأكّد من أنّه لم يخطئ الحدس. حرّك فناجين القهوة الفارغة التي في كفّه اليسرى فأحدثت الحركة رنيناً ضاع في الفراغ الذي يفصله عنها. واصلت السّير بخطى واهنة مرهقة بدت معها وكأنّها تحمل كلَّ أعباء الدنيا على كتفيها. اضطرب قلبه وهو يلهث محاولاً أن يلحق بها ويستوقفها. هل هي رائحة الماضي تنفذ إلى أنفه الآن ويدفعه إحساس غامض غريب لأن يمضي إلى نهاية الشّوط؟ ولا يدري كيف صعد صوته إلى حنجرته هاتفاً بارتباك:

ـ ربيعة؟!

توقّفت لحظة كأنّما استفزّها الصوت القادم من ورائها، لكنّها ما لبثتْ أن واصلت السّير بخطوات أسرع. أسرع هو الآخر وارتفع صوته من جديد:

ـ ربيعة؟! أنا برهان!

توقّفت والتفتت إلى الوراء وراحت تتأمّله ببصر ذابل، وقد ارتسمت على وجهها علاماتُ الخوف والدهشة وهي تحاول أن تستلّ صورته من زوايا ذاكرتها المرهقة. وعندما صار قريباً منها سمعته يقول:

ـ لا تخافي.. أنا برهان.

بَدَتْ وكأنّها اطمأنّت إليه بعض الشيء، وقد صارت الآن قبالته تماماً. نشر على وجهه ابتسامةً عريضة ليبدّد عنها خوفها ويعيدَ إليها بعض هدوئها الهارب. ولبثا صامتين برهة ثمَّ انتزع نفسه من حالة السكون:

ـ هل تذكّرتِ وجهي؟

ردّت بما يقرب من الهمس:

ـ تذكّرته.

ـ كيف حالك؟

تهدّج صوتها:

ـ كما ترى. مثل القطّة العمياء المهجورة في طريق مظلم.

صبَّ القهوة من «الدّلة» التي في يده في أحد الفناجين:

ـ خذي اشربي.

ترددت بعض الشيء لكنّها مالبثت أن مدّت يداً مرتجفة وتناولت فنجان القهوة بأصبعين يابسين. رآها ترتشف القهوة بحذر، وانتبه إلى أنَّ خوفها لم يغادرها تماماً بعد. قال وهو يسترجع الفنجان الفارغ من يدها:

ـ ما الذي يخيفك يا ربيعة؟

ـ شبح السكّين. إنَّه مازال يتراءىٰ لي باستمرار!

ـ أبَعْدَ كلّ هذه السّنوات الطّوال؟ لقد أصبحتْ تلك الأيّامُ في زاوية النسيان الآن.

ـ هل تظنّ ذلك؟ لو وقع بَصَرُ أحدهم عليّ لحزّ عنقي كما يُحزّ عنق نعجة مشرفة على الموت.

صبّ القهوة في أحد الفناجين من جديد، ومدّ يده به إليها، فردّته معتذرة:

ـ يكفي.. يرحم أبوك.

ولم تشأ أن تقول له إنَّها شربت ما في الفنجان الأوّل على معدة خاوية. قال بعد أن أعاد القهوة إلى الدّلة:

ـ أين تعيشين الآن؟

ـ مع أختي.

ـ أيّة أخت منهنّ؟ كانت لك أخوات كثيرات.

ارتعشت شفتاها قليلاً وازداد وجهها شحوباً وكأنّها سمعت ما نَكَأَ جرحاً قديماً غائراً في الأعماق، قالت على مضض:

ـ سعيدة.

أغمض عينيه قليلاً يحاول أن يستخلص من ذاكرته صورة صاحبة الاسم الذي طرق سمعه الآن ومالبث أن قال:

ـ أوه.. تذكّرتها.. تذكّرتها. صاحبة الجسد المكتنز بالشّحم. أليس كذلك؟

ـ أجل.. هي بعينها.

ـ لابدّ أنَّها الآن في حال جيِّدة.

ـ لقد عرفت كيف تعمل، وفتحها الله في وجهها. أصبحت صاحبة عقارات الآن.

زفرت بعمق وحشرج الصّوتُ في حنجرتها:

ـ ليست مثلي أنا الخائبة التي خرجت من الدنيا بوعاء مثقوب.

امتدّتْ لحظاتُ صمتٍ عميق بينهما، وفجأة قال وهو يمزج بين الجدّ والهزل:

ـ ألا تأتين معي؟

ردّت بلهجة محايدة:

ـ إلى أين؟

قال مملوءاً بالزّهو:

ـ إلى بيتي.. إنّني أعيش الآن في شقّة محترمة.

لم يبدر منها ما يشي بالممانعة؛ فقد اعتادت على مثل هذه الدعوة من رجال لا تعرفهم، فكيف الأمر مع برهان؟ لكن ذلك كان قبل سنوات حين كانت تحمل بقيّة من نضارة وقدرة على الإمتاع. أمّا الآن فلا أحد ينظر إليها إلاّ بعيني الاشمئزاز بعد أن امتصّ نضارتها الزمنُ وأحالها إلى كوم من حطام متحرّك. ما الذي يريده برهان من وراء دعوته الآن؟ ليكنْ. لن يقلق عليها أحد ولن يسأل سواء عادت إلى زاويتها في بيت سعيدة أم لم تعد. قالت وهي تنتزع قدميها من ذلك المكان:

ـ هيّا.

سار أمامها مأخوذاً بالدّهشة والحيرة؛ فقد كان يتوقّع أن تتمنّع، وأن تتعلّل بعذر ما. إنّها تسير الآن وراءه تفصله عنها خطوة واحدة لكنّها خطوة تعادل سنوات في حساب الزّمن.

شعرت وهي إلى جواره على مقعد سيّارة الأجرة اللّين أنّها تستردّ بعضَ آدميّتها. لقد مرّت سنوات ولم تلامس عجيزتها مقعداً ليّناً مثل هذا. كان ينظر عبر زجاجة النّافذة ساهماً حين بدأت السيّارة تعبر بهما الجسر، وكانت هي الأخرى تنظر عبر النّافذة المجاورة لها وكأنّها تتبصّر في المجهول. ولعلّ بصرها كان مشدوداً تلك اللّحظة إلى الماء الدّاكن المتدفّق تحت عتمة أوّل المساء الشفيفة. ولا تدري لماذا ساورتها الرّغبة في أن تتوقّف بها السيّارة على قمّة تحدّب الجسر فتغادرها وتطلّ على النّهر ثمّ تتسلّق السّياج الحديدي وتلقي بنفسها في عمق الماء. هل سيزيل عنها هذا الماء رائحة الماضي وصدأ السنين الكالحة؟

كانت السيّارة قد اجتازت الجسر واستدارت يميناً ومازالت هي وسط أفكارها المشوّشة. ومالبثت أن انتبهت إلى صوت احتكاك عجلات السيّارة بأسفلت الشّارع. فتح الباب ونزل وهمس لها:

ـ تفضّلي!

هبطت على ارتباك واستحياء. ووجدت نفسها إلى جانبه على الرّصيف. رفعتْ بصراً كليلاً إلى الأعلى لكنّها لم تستطع أن تتبيّن به نهاية العمارة البيضاء الواقفة بكبرياء تحت سماء الخريف، غير أنّها انبهرت بمرأى الأنوار التي تضيء الشّرفات المتدلّيّة بعضها فوق بعض. إنّه عالم غريب وجديد لم يسبق لها أن اقتربت منه. ها هو برهان يقودها إلى الدّاخل متلقيّاً تحيّات الأطفال ونظرات النسوة المتسائلة. لن يُسيء أحدٌ به الظنّ وهو في مثل هذا العمر، ولو استفزّه سؤال متطفّل فسيجد ما يلجمه.

وقفا عند باب المصعد. ضغط برهان على زرّ، وانتظر قليلاً. فوجئت بباب ينفتح بصورة آليّة. أجفلتْ ووضعت يدها على فمها وكادت تظنّ أنّ برهان أوتي قوّة سحريّة غامضة. ضغط على زرّ في لوحة الأزرار في داخل المصعد فانغلق الباب منساباً بهدوء. ارتعشت جفونها مأخوذة بالدّهشة وصارت تنظر إلى برهان باستغراب. فقابلها بابتسامة عريضة وقد أخذ المصعد يطوي طبقات العمارة، ومالبث أن توقّف وانفتح بابه من جديد وسط دهشتها وحيرتها. رأت برهان يغادر المكان فغادرته هي الأخرى كأنّها مشدودة إليه بحبْل سُرّي. وكانت تتلفّت إلى الوراء كأنّها تهرب من جنّ يحاول الإمساك بها.

سارا قليلاً في ممرّ ضيّق بعض الشيء حتّى توقّف عند باب الشقّة فوضع دلّة القهوة على الأرض ومدّ يده إلى جيبه وأخرج مفتاحاً أداره في الباب فانفتح عن ممرّ ساكن تحت مظلّة مُعْتِمة داكنة. لم تَرَ يد مضيفها تمتدّ في الظّلمة وتحرّك زرّ الإضاءة؛ فقد وجدت نفسها فجأة في مدخل ممرّ مضاء بنور بلون الحليب. سارت وراءه بهدوء حتّى صار بها في الصّالة وقد أخذت أضواء الثريّات المتدلّية من السّقف تتوهّج. قال لها مشيراً إلى إحدى الأرائك:

ـ تفضّلي!

تردّدت لحظة قبل أن تهبط بعجيزتها على الأريكة اللّينة. وساورها شعور بالرّهبة. هل هي في حلم؟ ووجدت من الجرأة بعد أن استردّت أنفاسها ما جعلها تسأله:

ـ هل هذا هو بيتك حقّاً؟

قال وهو يتّجه بدلّة القهوة والفناجين الفارغة صوب المطبخ:

ـ إنّها شقّة ابنتي، ولا فرق بيني وبينها.

جالت ببصرها في أرجاء الصّالة وكأنّها تتفحّص كلّ تفصيل فيها تفحُّصَ المأخوذ بدهشة المفاجأة. عاد بعد غياب قصير وألقى بجسده على أريكة قريبة منها. قالت بصوت يتعثّر في فمها:

ـ هل قلت إنّها لابنتك؟

ـ نعم إنّها لابنتي.

ـ إذن فإنّ لديك ابنة حقّاً!

ـ ولديّ ولد أيضاً. لكنّه بعيد عنّي الآن. إنّه يعمل في الجنوب.

ـ وابنتك؟ إنّها غائبة هي الأخرى على ما يبدو.

ـ إنّها غائبة فعلاً ولكنّه غياب مؤقّت. هي وزوجها في إجازة في الشّمال الآن.

ضحك برنّة صافية وهو يقول:

ـ وهكذا ترين أنّ جسدي هنا في الوسط، لكن قلبي موزّع بين الشّمال والجنوب. هذه هي حال الدنيا.

أطرق قليلاً وما لبث أن قال:

ـ ما أضيق الدّنيا يا ربيعة! وإلاّ من كان يظنّ أنّني سألتقي بك بعد هذا الزّمن الطويل؟ هل تذكرين كم مرّ على آخر لقاء بيننا؟

ـ لقد نسيت حتّى نفسي.

ـ أنا أذكر. أكثر من ثلاثين عاماً. إنَّه عمر يا ربيعة. تاريخ قديم لكنَّه عظيم بالنّسبة إليّ. فقد كانت البداية التي انتزعتُ نفسي فيها من ذلك المستنقع.

انتبه إلى أنَّها تحملق في وجهه وكأنَّها لا تفقه شيئاً ممّا يقول. كم تغيّرت يا برهان! قال وقد اعتدل في جلسته ورفع رأسه إلى الأعلى:

ـ هل تذكرين ذلك اليوم الذي غبتُ فيه عنكم فجأة؟

ـ أذكره. لقد بكيناك طويلاً إذ بلغنا أنَّ مكروهاً أصابك في ذلك الزمن العسير.

ـ إنَّه يوم مجيد في حياتي. خرجتُ لأقضي أمراً لإحداكنّ، لكنّني فجأة وجدت نفسي وسط الشّارع الملتهب بالغضب. لم أكن أفهم شيئاً آنذاك خارج حدود ذلك البيت المعتم والزقاق الموبوء بالعفن.

لكن ذلك اليوم انتزعني من الوحل وأعاد إليّ آدميّتي. قضيت عاماً في السّجن وحين خرجت إلى حياة الحرّيّة وجدت طريق الكرامة قد انفتح أمامي. تزوّجت وأنجبت وماتت زوجتي قبل سنوات. وحين تقدّم بي العمر استهوتني دلّة القهوة وفناجينها وها أنا أمارسُ كلَّ يوم رحلة تجوال متعبة ولكنَّها لذيذة.

قالت وكأنَّها كانت تصغي إلى حكاية خرافيّة:

ـ وذلك الماضي؟

ـ منحني الله القدرةَ على نسيانه والتخلّص من آثاره.

ضحكتْ وقد ملأت أنفها رائحةُ ذلك الماضي البعيد، وأسدلت عباءتها على كتفيها مستجيبةً لجوّ الأُلفة المحيط بها وقالت:

ـ ألا تسترجع تلك الأيّام أحياناً؟

ردّ على عجل:

ـ أسترجعها ولكنْ كذكريات زمن قبيح ولعين تخلَّصتُ من آثاره كما قلتُ لك قبل قليل!

رجع بظهره إلى الوراء، وانثال في ذهنه شريطُ ذكريات. تذكّر طقوسَ الزفّة التي كان هو العريس الدّائم فيها؛ فهو رجل البيت الوحيد. في أيّام الكساد كان عليه أن يُزَفَّ إلى واحدة منهنّ بالتناوب كلّ يوم وسط طقوس المرح والبذاءة. يتخيّلهنّ الآن بأجسادهنّ التي تتمايل طرباً وبحناجرهنّ التي تصدح بالزغاريد، بوجوههنّ المزوّقة وثيابهنّ الفاضحة.

قالت وهي تنتزعه من صمته:

ـ أين سرحت؟

ردّ منتزعاً نفسه من تلك الذكريات التي تثير فيه الضحك الآن:

ـ إلى ذلك الماضي. تذكّرت طقوس الزفّة المزيّفة تلك. أصارحك يا ربيعة بعد هذه السّنوات الطوال أنّني كنت أرتاح معك كثيراً.

قالت مملوءةً بزهو أجوف:

ـ ذلك لأنّني كنت أجمَلَهُنَّ وأكثرهنّ قدرةً على الإمتاع.

شجّعها حديثُ الماضي، فتحرّرت من عباءتها تماماً وقد استرخى جسدها وغادرتها حالة الارتباك والتردّد. وفجأة نهضتْ وسارتْ صوب المطبخ وكأنَّها تسير في مكان أليف. دخلت ووقفت مبهورة بجدران القاشاني اللاّمعة. أغمضتْ عينيها وفتحتهما كأنَّها تشكّ في أنَّها في حالة يقظة تامّة. كان يقف إلى جوارها مأخوذاً بالدّهشة والحيرة معاً. رآها تتّجه إلى إناء على خوان وتمدّ يدها وتلتقط فخذ دجاجة محمّراً وتبدأ بالتهامه بنهم شديد وكأنَّها لم تتذوّق طعم اللّحم منذ زمن سحيق.

عادت إلى المطبخ وهي تمسح فمها بطرف كُمِّ ثوبها الحائل اللّون، وكانت تلمس كلّ شيء وكأنَّها تلمس حجراً كريماً. كان يلاحقها: لا يدري أيمنعها أم يدعها تنفّس عن مكتوم الحرمان الذي تكدّس في نفسها؟ قالت ملهوفة:

ـ أين غرفة نوم ابنتك؟

سألها بشيء من الاستنكار:

ـ لماذا؟

ـ أريد أن أراها.

قادها إلى الغرفة وأدار مفتاح الباب وأضاء النّور فوقفتْ مبهورة كأنَّها تقف في مكان مسحور. نقّلت بصرها بين السّرير المزدوج المغطّى بشرشف أبيض نظيف، وخزانة الملابس التي تكاد تغطّي كامل الجدار الذي خلفها، ومرآة الزينة، وستائر النّافذة المسدلة. سارت صوب مرآة الزينة وتلفّتت حولها كأنَّها تستطلع المكان. ومالبثت أن جلست على مقعد صغير أمام المرآة. كان يقف متّكئاً إلى إطار باب الغرفة متابعاً ببصر قلق ما تفعله هذه المرأة التي بدت وكأنَّها أصيبت بمسّ جنون. مدّت يدها إلى رأسها ونزعت عنه العصابة السوداء فبان شعرها الأشيب الأشعث الذي يحمل بقايا حنّاء قديمة. التقطت مشطاً قريباً وصارت تمشّط شعرها وسط حيرته وإحساسه بالورطة. كان يتنازعه شعوران متضادان: أن يمنعها من أن تستخدم مقتنيات ابنته الخاصّة، أو أن يدعها تفعل ما تشاء كي لا يكسر نفسها. رآها تمدّ يدها إلى أصبع أحمر الشّفاه وتمرّره على شفتيها المتيبّستين ثمّ تسكب على صدرها بعض العِطر. بدأ يغلي من الدّاخل لكنَّها نهضت وخيّل إليه أنَّها خلفت آثار صدأ في المكان. ظنّ أنَّها اكتفت بذلك غير أنَّه رآها تتّجه إلى السّرير وتستلقي عليه. شعر بالرّغبة في أن يندفع إليها وينتزعها من ذلك المكان لكي لا تترك على فراش ابنته عفن رائحة جسدها وصدأ ماضيها النتن الذي توهّم بأنَّها تخلّصت منه، لكنَّه تردّد في أن يفعل ذلك. مدّت يديها إلى ثوبها وسحبته إلى صدرها فكشفت عن ساقين يابستيْن وعن سروال داخلي حائل اللّون. وراحت تنظر إليه بعينين ذليلتين. تلك اللّحظة شعر كأنَّ رائحة ماضيها العفنة قد بدأت تملأ المكان وتسدّ عليه منافذ الهواء النقي، فصرخ على فزع. وأطفأ الضوء، فغمر الظلام الغرفة. هرول وقد انتابه الشّعور بالغثيان متّجهاً صوب الصّالة التي يغمرها الضّوء.

بغداد